٣- تاريخ حيـــــاة

ألف ليلة وليلة

للاستاذ الكبير احمد حسن الزيات

أستاذ الأدب العربي بدار المعلمين العليا ببغداد

مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته

ذهبت جهود الباحثين باطلا فى تحقيق هوية المؤلف ، لأن هزار إفسانة نقل إلى العربية غفلا ، لم يسم واضعه ، ثم غشيته الطبقتان البغدادية والمصرية على التدرج ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع فى عصره من ثمرات القرائح ، وقطرات الاقلام ، دون أن يسندها إلى راو، أو يعزوها إلى مؤلف . ولماذا يفعل ذلك وهو يريد أن يحفظ ويقص ، لا أن يروى وينشر ؟ فلما هيأت الأحوال أسباب تدوينها فى العهد الذى ذكرته ؛ قيض الله لها من ضم شتات الفتها ، ونسق نظام وحدتها ، ثم دونها على هذه الصورة ؛ ولم يستطع ذلك الجندى المجهول أن يملى اسمه على الخلود ، إما لتواضع فيه حمله على إنكار ذاته ، وإما تواطىء من النكران والنسيان ، أمات اسمه بعد مماته . ومن التوافق الغريب أن أسماء الكتاب الذين وضعوا القصص الفرنسية الكبيرة، فى العهد الذى دون فيه الف ليلة وليلة ؛ قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك ، كأغانى (رولان) ، وقصص المائدة المستديرة ، وقصص الحكماء السبعة مثلا .

وقد اختلف العلماء فى أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة، ولست أرى لهذا الخلاف وجها، فان الكتاب تكون - على اليقين - من أعمال مستقلة، ثم تما بالاتفاق على توالى الحقب، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الأعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ، ومن وراء الامكان . أما التاريخ الذى نقرفيه على هذا الوضع الأخير، فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن أن نحصره منه فى السنوات العشر الواقعة بين سنتى ٩٢٣ — ٩٣٣ ، وهما توافقان سنتى ١٥١٧ و ١٥٢٦ من التاريخ المسيحى .

وقد حصره الأستاذ (وليم لين) الانجليزى بين سنتى ١٤٧٥ - ١٥٣٥ للميلاد من مدى خمسين سنة، فوافقناه فى الغاية وخالفناه فى البدء، ولم نر هذا الرأى اعتباطاً من جهة، ولا استنباطاً من النص الظنين من جهة أخرى ، وإنما اعتمدنا فى تحقيقه على دليل مادى، وهو أن الأستاذ الفرنسى (جلان) قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٤ ؛ وقد نقله عن نسخة

عربية مخطوطة فى ثلاثة مجلدات، أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠، وهى مكتوبة بمصر غفلا من التاريخ، ولكن الذى نقلها إلى الشام - وهو من طرابلس - كتب عليها بخطه أنه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة، ثم انتقلت من يده إلى يد آخر من حلب: فكتب عليها أيضا تاريخ هذا الانتقال وهو ١٠٠١ ؛ فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل ٩٤٣ بزمن تقدره كما قدره (لين) بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الأعلى، أما من جهة الطرف الأدنى ، فانا نجد ذكر القهوة المعروفة ، يتردد فى بعض الحكايات، كحكاية أبى صير وأبى قير ، وحكاية على نور الدين ، ومريم الزنارية مثلا ، وذلك لا يكون قبل العقد الأول من القرن العاشر ، لأن القهوة لم تنتشر فى الشرق إلا فى هذه المدة ، ثم نجد لفظ الباب العالى وبعض النظم العثمانية تذكر فى حكايات أخرى كحكاية معروف الاسكاف، وهى مصرية قطعاً. والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣، فيكون الكتاب إذن قد دون بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ .

ذلك تحقيق الزمن الذى صنف الكتاب فيه جملة ، أما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة، فذلك عمل إن تيسر فى حكاية تعذر فى أخرى . وبعض الباحثين قد حاول ذلك فى شىء من التوفيق، كالأستاذ (وليم بوير) الأمريكى، فانه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً فى ٤٤ صفحة من الجلة الآسيوية ، جزم فيه بأن حكاية الوزيرين: شمس الدين ، ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس، أى بعد سنة ٦٧٦، ويرجح أنها كتبت سنة ٧٠٦، وأن قصة الخياط والأحدب - بما تشتمل عليه من الحكايات الأخرى كزين بغداد - قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة . والدخول فى هذا الموضوع يخرج بنا إلى التفصيل الذى يمك فى الروح ويخمد نشاط الحديث .

سمى العرب هزار إفسانه الف ليلة، ولو أرادوا الترجمة الأمينة لقالوا ألف خرافة أو أسطورة، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما أن الليلة كانت فى اصطلاحهم ترادف الأسطورة باعتبارها زمناً لها ، وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد بن اسحق الوراق :

« ابتدأ أبو عبد الله الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء ، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره، وأحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ما يحلى بنفسه.. فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما فى نفسه من تتميمه ألف سمر ... » وإما أن يكون عدد الألف فى الأصل إنما أريد به التكثير لا التحديد، على حد قوله تعالى : « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ، وأحر به أن يكون كذلك ، فان ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً، وقال إن فيه دون المائتى سمر ، وهو اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز

٢٦٤ حكاية، قسمها المؤلف على ألف ليلة وليلة تقسيما فيه عبث الهزل، أو سخف الصناعة . فان شهرزاد يدركها الصباح دائماً ، ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق، على أنه لم يبق مما رآه ابن النديم إلا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

أما زيادة الليلة على الألف فمن عمل القرن السادس، لأن النسخة التي رآها القرطبي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي، كانت تحمل اسم الف ليلة وليلة ، ويقول (جلد مستر) في تعليل زيادة الليلة: إن العرب يطيرون بالاعداد الزوجية ، وهو زعم غريب مارأيت في تاريخنا ولا في أدبنا مايؤيده .

ولقد ظل الكتاب أكثر من قرنين يسمى ألف ليلة، وكان الجهشياري يريد أن يسمي كتابه ألف سمر . وعندنا ألفية ابن معطي وألفية ابن مالك ، وأغرب من هذا الزعم أن يؤيده (أوستروب) في دائرة المعارف، ويزيد عليه أن ميل الناس في تلك العصور إلى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث أيضاً على هذه التسمية، وليس في قولنا ألف ليلة وليلة - كما تعلم - تسجيع ولا مزاوجة ؛ والغالب في رأيي أن الليلة إنما زيدت فوق الألف لافادة الكمال ، كفحمة الاناء وميلة الميزان ، لأن الألف عدد تام بالنسبة إلى هذا الكتاب ، فاذا زيد عليه الواحد كان كاملا ، والكمال درجة فوق التمام ؛ وإن في لغة التخاطب مايشبه ذلك فقد يقال في المن: قضيت لك الف حاجة وحاجة ، وفي المبالغة زرتك الف مرة ومرة، وهلم جرا .

طريقة الكتاب وأسلوبه

كانت طريقة العرب في القصص أن يسردوا الاسمار والاحاديث ، على نمط يجعل كل حكاية قائمة بذاتها ، لا يربطها بما يسبقها ولا بما يلحقها علاقة ، وتروى ذلك واضحاً في أمثال لقمان وكتب النوادر. فلما نقلت الاقاصيص الهندية إلى العربية في القرن الثالث عن طريق الفارسية، أدخلت في أدبنا القصصي طريقة تجعل الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات، متعاقبة الحطوات، متتابعة النسق ، وذلك على ضربين : الضرب الأول أن تتعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية ، تكون قائمة لبدايتها ، وسببا لروايتها، ابتغاء التعويق عن فعل ما لا يحل، وذلك في العربية مذهب كتاب الوزراء السبعة ، وكتاب كليلة ودمنة ، وأغلب كتاب الف ليلة وليلة ، وهو في الفارسية مذهب بختيار نامة، وقصة جهارد رويش، وقصة نوروز شاه، وكتاب طوطي نامة ، وأنوار سهيلي مثلا . والضرب الثاني أن تروى الحكايات موزعة في الكتاب على عدة أبواب ، بحيث تكون الحكاية في أي باب من هذه الأبواب مقدمة لحكاية الباب الذي يليه . ومن هذا الضرب في أدبنا كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع لابن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥هـ ، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، لاحمد بن عرب شاه الدمشقي، المتوفى سنة ٨٥٤هـ. وفي أدب الفرس كتاب

مرزبان نامة، لمرزبان بن رستم بن شروين ، وقد ترجمه ابن عرب شاه واستمد منه ، ذلك فضلا عن الطريقة الفارسية التي أخذناها فى الاقاصيص الغرامية المطولة ، فالف ليلة وليلة إذن يجرى على ثلاث طرق : يجرى على الطريقة الهندية فى الحكايات المتداخلة المتسلسلة، كحكايات الاصل وحكاية البنات الثلاث، والصماليك الثلاثة، وحكاية الخياط والاحدب والطبيب ، وحكاية جان شاه وحكاية ورد خان ... الخ . ويجرى على الطريقة الفارسية فى الحكايات المفردة المجردة ، كحكايات العشاق فى بعض أقاصيص الاصل، وما جرى مجراها من حكايات الطبقة البغدادية ، فانها مضروبة على قالب القصص الفارسى فى الاعتماد على الحب الوهمى، الذى يصيب ظرفاء الشباب على أثر طيف يزور فى الكرى، أو صورة تعرض فى الطريق، أو حكاية تلقى فى المجلس. ثم يجرى على الطريقة العربية الخالصة فى الاقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الادب : كحكاية حاتم الطائى، وحكاية معن بن زائدة ، وحكاية ابراهيم بن المهدى ، وحكاية خالد بن عبد الله القسرى مثلا . أما أسلوبه فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص. فاذا حكمنا عليه فانما نحكم على جملته لا تفصيله، ونتوخى الصفات العامة فى نقده وتحليله . فهو فى عمومه أسلوب سهل المأخذ ، مطرد السياق، سوق اللفظ ، مبسوط العبارة ، كثير الفضول ، كثير التخمين ، جرىء الاشارة . لا يعرف الكناية ، ولا يقر الحياء ، ولا يصطنع التحفظ ، لأن سبيله سبيل العامة ، فهو يسايرهم فى ثرثرتهم وفضولهم ، وسذاجتهم وصراحتهم وبلادتهم، ولا يستطيع أن يكون إلا كذلك يسير سير الأعرج المفلوج وراء المذهبين الكتابيين اللذين راما على التعاقب فى عهده ، وهما مذهب ابن العميد فى العراق، ومذهب القاضى الفاضل فى مصر ، فهو يسرف فى السجع ويكثر من اقتباس الأمثال وتضمين الملح، ويتظرف أحيانا بذكر مصطلحات النحو، على سبيل التشبيه أو التورية، كقوله فى قصة قمر الزمان الثانية « باتا على ضم وعناق . وإهمال حرف الجر بالتفاق، واتصال الصلة بالموصول ، وزوجها كتنوين الاضافة معزول » ، وهو يغالى فى تضمين الأبيات فى خلال الحكايات ، ويمعن فى ذلك غالبا حتى يمل . وترصيع النثر بالشعر أسلوب لا يألفه الأدب العربى ولا الادب الفارسى ، وإنما هو ميزة من مزايا الأدب الهندى أيضا .. اقتبسه الفرس ثم نقله كتابهم إلينا فى منتصف العصر العباسى ، وروجه فى عهد بنى بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات ، كابن العميد والصاحب والبديع والخوارزمى . ومن ترسم خطاهم ، أو سار على هداهم . وموضع هذه الاشعار يكون عادة فى مواقف السرور والحزن ، والوصف وثوران العواطف ؛ ولكن القصاص يسيء فى الغالب استعمال التضمين فيخطىء مواضع الاشعار أو يجهل محل المناسبة أو يردد الابيات نسيا فى كل موقف ، وقد تدفعه السماجة الى الاستطراد الغث فيقول : وقال الشاعر أيضا فى المعنى ، ثم يورد أبياتا لا يصلها بالموضوع سبب ، كما فعل فى مقدمة على نور الدين ومريم الزنارية مثلا ، فانه حين وصف البستان ، لم يترك نوعا من أنواع الفاكهة إلا ذكره وروى ما قيل فيه من الشعر حتى استغرق فى ذلك

خمس صفحات من الكتاب .

إن خير ما يمتاز به أسلوب ألف ليلة وليلة هو الوضوح والصدق والصراحة والجاذبية ، فالمعاني تسبق الالفاظ إلى الذهن ، والصور تسبق الوصف الى الخاطر ، والشوق يبعث اللذة ويثير الاهتمام ويحرك الانتباه، ويربط السامع والقارىء بموضوع القصة ، على أن القصاص يعالج التصوير والحوار بدقة وبراعة في كل ما يتصل بأحوال الشعب وأخلاق العامة ، فاذا سما إلى مقام الملوك والخاصة خانته قدرته ، وغلبت عليه بيئته وطبيعته ، فيفقد ما يسمى في الفن الكتابي (بالصبغة المحلية) ، وهي أن يسند إلى الشخص ما يلائم طبيعته وطبقته وبيئته من قول أو فعل . فالأقاصيص الهندية والفارسية تشوبها روح القصاص الاسلامية ، كحكاية قمر الزمان ابن الملك شهرمان، والحكايات البغدادية تظهر فيها اللهجة المصرية، كحكاية ابي الحسن الخليع ، ثم نراه يجري على لسان الخليفة الرشيد ما يأبى عليه جلاله وكماله أن يقوله ، ويجعله يفعل ما لا يجوز في العقل أن يفعله ، كأن ينادي وزيره جعفرا بقوله : يا كلب الوزراء، ويكلفه في قصة الفتاة القتيلة بالمثور على القاتل في مدى ثلاثة أيام، وإلا شنقه هو وأربعين من بني برمك . وكأن يخلع في حكاية على نور الدين مع أنيس الجليس حلة الملك ليرتدي مرقعة بالية قذرة (لكريم الصياد) ، فيفيض قملها على أطرافه ، ويسيل قذرها على منكبه وأعطافه ، ولو أن ما كان به الرشيد من التعب المزري كان لضرورة ملجئة، لوجدنا له مساغاً من الفن، ولكنه جشمه ما جشم ليتسنى للخليفة أن يسمع غناء أنيس الجليس، وهي في قصر من قصوره وفي ضيافة خادم من خدمه ، فهو يدخله في هذا الزي الزري على الحبيبين والبستاني ليقدم إليهم ما معه من السمك فيكلفوه بشيه في المطبخ فيشويه!!.

وكثيرا ما تدفع القصاص شهوة الاغراب إلى تجاوز المبالغة المعقولة، فتفوته من الفن صفة الامكانية، وهي أن يلبس القصصي الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة، فيقرب ما بينها من الظروف ويمهد لها أسباب الوقوع ، حتى لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد ، والأمثلة على هذا العيب مستفيضة في كل قصة ، وفي الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت شروط الفن القصصي كلها كقصة الصياد والجني وقصة مزين بغداد ومقدمة حكايات السندباد، وقصة علي بن بكار وشمس النهار .

هذا إذا نظرنا الى الأسلوب في خطته وعمومه ، أما اذا تتبعناه باللمح الخاطف في نواحي الكتاب ، وجدناه فيما بقي من الأقاصيص الهندية والفارسية، وما جرى مجراها من الحكايات المحدثة المقلدة ، بين السذاجة أبله الاشارة، لأنها من نوع الطوارق التي تدخل على القلوب الغريرة ولا تظفر الا بتصديق العقول البسيطة، فهو جار مع طبيعتها متفق اللون مع صورتها . وفي الطبقة البغدادية نراه متين العبارة، عفيف اللفظ، حسن السبك، دقيق الوصف، كثير السجع، قليل الفضول،

لأنه فى الغالب مكتوب يحذى على المثل العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب. وقد يسف فى بعض الأقاصيص إسفافا قبيحا لينقل بسخفه على الطبع ويمتدى بضعفه على الذوق كما نراه فى قصة النائم اليقظان مثلا. أما الاسلوب فى الطبقة المصرية فهو فى قسمها الأول وخاصة الاقاصيص المكتوبة منه أشبه شىء باسلوب الطبقة البغدادية مع اتساع فى السجع وجرأة على الحشمة، والغالب عليه التقليد، فتارة يجرى على منهاج الطريقة الهندية كما نرى فى حكاية وردخان والملك جليعاد، وتارة ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعله فى قصة قمر الزمان الثانية وحكاية سرور وزين المواصف. وقد يجرى فى مجراه الخاص من التهكم الساخر والمزاح المضحك فيكون رقيقا كما نراه فى قصة الاحدب وخاصة فى مزين بغداد، ولكنه فى القسم الثانى وفى سائر القصص الالفائية التى ألفها القصاص ليلقوها فى السوامر، مهلهل النسيج، عارى اللفظ، مرذول المبالغة، سيىء التلفيق، شديد الوطأة على الحياء والمروءة، لصدوره عن قصاصين محترفين جهلاء يتملقون شهوات العامة بالاخباث، ويستفزون فضول الجمهور بالمبالغة، ثم يكثر فيه ترداد الجمل المحفوظة الملتزمة، فيقال دائما فى وصف القينة العازفة « فعملت على العود من غرائب الموجود إلى أن طرب الحجر الجلمود وصاح العود فى الحضرة ياداود ». وفى إيثار البعد « بعدك عن الحبيب أجل وأحسن، عين لا تنظر وقلب لا يحزن ». وفى غرابة الحادثة « لو كتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر »، وفى وصف الشيخ الفانى « قد أبقى ما أبقى وعركه الدهر فما أستبقى، كأنه مغنى ملقى فى خرقة زرقا تمريها الأرياح غربا وشرقا، كما قال فيه الشاعر »

أرعشنى الدهر أى رعش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت أمشى ولست أعيا واليوم أعيا ولست أمشى

وفى وصفه ساحة الحرب ومجالس الانس ورياض الأرض وأثاث البيت لا يكاد يغير شيئا من الأسجاع والأوضاع ومقطوعات الشعر.

ذلك أيها السادة ما استطعت استشفافه من صور الأساليب الأثرية فى الكتاب، وسترون حيث تعيدون قراءته، أن القصاص والمصنفين والمصححين فى مصر، قد أخضعوه إخضاعا شديداً للهجاتهم وأساليبهم وأمثالهم، حتى جعلوا البحث اللغوى الفنى من البعد بحيث لا تبلغ اليه وسيلة.

فلسفته ومراميه

إن من يطلب من ألف ليلة وليلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة، كان كمن يطلب من كافة الناس عقيدة واحدة وطبيعة ثابتة وأغراضا متفقة. فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبى يصور الحياة الدنيا كما هى لا كما ينبغى أن تكون، فاذا رأينا مذاهبه تتناقض ومراميه تتعارض وآراءه تختلف، فذلك لأن المجتمع الذى يصوره كذلك. ولم يكن

الكتاب نتاج قريحة معلومة ، ولا نتيجة خطة مرسومة ، حتى تتلمس فى جوانبه الدوافع والنوازع والغاية ، إن هو إلا صدى يتردد خافتا لعقائد الشرق القديم وعظماته وعاداته . ففى الفلسفة نراه يتأثر بالأفلاطونية الحديثة والأخلاق الاسلامية ، فيدعو إلى القناعة باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال فى اللذة والمبالغة فى الحذر والتفويض المطلق للقدر . فروحه من هذه الجهة تتنافر مع صورة البراقة ووسائله الطامحة وحوادثه العامرة . ثم نراه فى أقاصيص أخرى ولا سيما الحديثة يزين الأنانية ويرتضى القسوة ويتشوق الى المكاسب الدنيئة ويثيره إلى اللذة الخسيسة ، ولا يكاد يعتقد بالعواطف الشريفة .. وقد يصور المتاع الحسى واللهو الجموح بما لا يتمثل فى الذهن إلا على سبيل الخيال ، كالذى يحكيه عن فتى من أبناء الملوك رسا إلى جزيرة كل من فيها من تجار وصناع نساء كأنهن اللؤلؤ المكنون ، فقضى بينهن فى هذا النعيم أياماً أقل ما أصاب فيها من اللذة انه كان يلقى الشبكة فى الماء على سبيل اللهو فتخرج اليه من الأصداف فريدة من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجنان ، الخ .. فاذا اختبرناه فى السياسة والاجتماع رأيناه ملكيا يقيم فى كل مدينة عرشا وينصب على كل مجمع من الاحياء ملكا حتى الحيات والحشرات والنمور والوحوش والقردة ، ديمقراطيا يشرك الملك والملوك فى متع الحياة ومجالى الانس ، عائليا يبنى نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة والولد . لذلك تجده يستهل معظم اقاصيصه بحنين الوالدين الى النسل ، وفزعهما الى الله ، أن ينجيهما من داء العقم . وقد يسمو منزاه الى الفلسفة الاجتماعية العالية ، مثال ذلك حكاية السندباد والحمال . فالحمال يؤوده الحمل الفادح ، وينهكه الحر اللافح ، فيلقى حمله على مصطبة امام بيت من بيوت التجار يتردد اليه النسيم الرطيب ، وتضوع منه روائح العنبر والطيب ، ثم يرى عظمة ذلك التاجر فى كثرة خدمه وغلمانه ، ويسمع تغريد البلابل والفواخت فى بستانه ، ويصغى الى رنين أوتاره وغناء قيانه ، ويشق أفاويه الطعام الشهى من صحافه وألوانه ، فيرفع طرفه الحائر الى السماء ويقول سبحانك يارب لا اعتراض على حكمك ولا معقب لأمرك أين حالى من حال هذا التاجر ؟!

أنا مثله وهو مثلى ولكن حمله غير حملى !!

على ان أسوأ ما سجله الف ليلة وليلة من ظلم الانسان وجور النظم هو القسوة الجائرة على المرأة ، فان حظها منه منكود وصورتها فيه بشعة . وكيف ننتظر من كتاب بنى على خيانة المرأة أن ينصف المرأة ؟! إن شهرزاد المسكينة انما تسهر جفنها وتكد ذهنها لتقص على الملك شهريار أعجب القصص : ابتغاء الحظوة لديه ، حتى تدرأ القتل عن نفسها والخطر عن بنات جنسها . ومن الخطل الاليم أن يسند القصاص كل هذه النقائص الى النساء على لسان واحدة منهن فى مقام الدفاع عنهن ، وأن يجرى على فمها فى حضرة الملك تلك الكلمات الجريئة الفظيعة فى وصف بهيمية الرجل .

الف ليلة وليلة يصور لنا المرأة فى القسم الهندى والفارسى خطالة خائنة ، تبيع عرض الملك

للعبد فى قصة شهريار وأخيه ،لجوجة جموحة أنانية فى قصة الثور والحمار، تصر على أن يبوح لها زوجها بسره ، وهى تعلم أن فى إفشائه ضياع عمره، حاقدة كائدة منتقمة فى قصة الوزراء السبعة ، قاسية عاتية مرهوبة فى حكاية قمر الزمان الاول. وهى فى بغداد سجينة فى قصرها مغلوبة على أمرها ، قد انتبذها زوجها وألقى زمامه بيد الجوارى والندمان . وعلى كلتا الحالين من حرية ورق نراها وسيلة لذة وغرض شهوة وأداة خدمة . فاذا خرجت من ظلام الستار الى ضوء النهار، كانت طاغية جاهلة كزوجة معروف الاسكاف، أو لصة حيالة كدليلة بنتها زينب ، أو قوادة مرتادة كأولئك العجائز اللاتى ينتقلن الفتنة من مكان الى مكان ، ويحالين المتكرين فلانة وفلان .

أما تصوير الكتاب لمظاهر الاجتماع الشرقى فى القرون الوسطى من العادات والأخلاق والمراسم فى السوامر والولائم والأعراس والمآتم والأسواق والمحاكم،فقد بلغ الغاية من ذلك كله ، إلا أن الطبقة المصرية فى هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع، لأن القصاص وهم مصريون، تكلموا عن علم ،ووضعوا عن رؤية،ونقلوا عن سماع . فاذا قرأتم مثلا حكاية نور الدين وشمس الدين ،وجدتم المصريين كانوا فى حفلة العقد،يطلقون البخور،ويشربون السكر،ويمسحون الوجوه بماء الورد ، وفى زفاف العروس ينقطون المواشط القيسان ، بألقاء النقود فى الدف أو الاطار كما يسميه ألف ليلة وليلة ، أو الطار كما يسمى الآن فى مصر . وفى جلوتها على المنصة يجلسونها بين صفين من كرائم السيدات، فى يد كل منهن شمعة موقدة، ثم يلبسونها حلة بعد حلة فى فترة بعد فترة حتى يخلع عليها سبع حلل،ومع كل سيدة من المدعوات إلى الحفل صرة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ، فكلما خلعت العروس حلة خلع المدعوات كذلك حلة إلى تمام السبع ؛ ولا تزال هذه العادات باقية فى بعض البلاد وبعض الأسر فى مصر.

وإذا قرأتم حكاية علاء الدين أبى الشامات وجدتموهم كانوا يتعاطون الحشيش قوة للزوج، ويتخذون العمل خلاصا من الطلقة الثالثة، وهما خلتان شائعتان اليوم فى الطبقة الدنيا. اقرأوا حكاية معروف الاسكاف ،تجدوه مثالا صادقا لبعض الناس هناك فى ضعف الارادة وسلامة الصدر وحب الأبهة،وتبذير ما فى الجيب اتكالا على الغيب،واهتضاما للحق ، وتجدوا زوجه فاطمة التى فرمن جبروتها وجفوتها وقسوتها وعنادها إلى أقصى مجاهل الأرض فتبعته لايزال لها شبه فى الباقيات الطالحات بمصر من عهد الجهالة .

أما الطبقة البغدادية فقد عبث بها القصاص وشابوها بلهجاتهم وعاداتهم ، ولكنها مع ذلك حرية بثقة الباحث ، إذا استطاع تنقيتها من شوائب البهرج والدخيل .

بقى علينا أن نعرف وجهة كتابنا فى الدين . وليس من العسير على القارىء العادى أن يتبين تلك الوجهة، فان فى كل صفحة من صفحاته دليلا على أنه مسلم صادق الايمان قوى العقيدة

يأخذ تقاليد الدين صحيحة أو مشوبة مأخذ العامى الواثق المطمئن ، فلا يبحث ولا يستنبط ولا يطبق ، حتى فى مقام الحكمة والموعظة ، لايكاد يذكر حديثا ولا آية ، وإنما يستند فى ذلك إلى مأثور الشعر ومنثور الحكم. فسبيله فى الدين إذن ، أن يدعو اليه ، ويهتف به ، ويتعصب له ، لذلك تراه لايتحدث إلا عن المسلمين ولا يتخذ أشخاصاً لقصصه حتى الأجنبية منها الا من المسلمين ، فاذا كان أحد الجنة أو الناس غير مسلم واضطر إلى الحديث عنه ، انتهى به إلى الاسلام أو دبر له عقبى سيئة ، وذلك نادر كما فعل فى حكاية مسرور المسيحى وزين المواصف وزوجها اليهوديين. فالحبيب والحبيبة أسلما فرفرفت عليهما ظلال النعيم والحب ، وظل الزوج يهوديا فدفنته امرأته حيا . وألف ليلة وليلة بعد ذلك سنى ، لايكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الاسلام حتى الشيعة ، وكان لهم على عهده فى مصر دولة الفاطميين وفى العراق نفوذ البويهيين ، لم يذكرهم إلا فى حكاية علاء الدين ، وهى مكتوبة بمصر على عهد المماليك . ولقد دل حين تعرض لهم فى هذه القصة على جهالة قبيحة أو دعاية سيئة ، فقد أشار فى موضع منها إلى أن الروافض كانوا يكتبون اسمى الشيخين على بواطن الأعقاب ، وقال فى موضع ثان : إن أهل بغداد كانوا يغلقون الأبواب خوفا من الروافض أن يلقوا الكتب فى دجلة ، وقال فى موضع ثالث : إن الرشيد سأل الرجل الذى هم باغتياله وهو يلعب الكرة والصولجان ، فنجاه أصلان من علاء الدين : أما أنت مسلم ؟ فقال كلا ، وإنما أنا رافضى .

مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته

صنف المنقبون ما عثروا عليه من مخطوطات ألف ليلة وليلة فكان ثلاث مجموعات مختلفة ، مجموعة أسيوية ومجموعتين مصريتين . فأما المجموعة الأسيوية ، وهى أقدمهن ، فلا تشتمل إلا على القسم الأول من الكتاب ، وإحدى نسخها مبتورة ، وأشهرها نسخة كالكوتا ، وهى تحتوى على مائتى ليلة ، وقد شرع بطبعها الشيخ اليمنى فى جزأين بمدينة كلكوتا سنة ١٨١٤ وأتمها سنة ١٨١٨ ، فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب فى الشرق والغرب ، ثم نسخة برسلو ، وهى التى طبعها الأستاذ (هبكت) فى اثنى عشر جزءاً ، ظهر الجزء الأول فى سنة ١٨٢٥ والأخير سنة ١٨٤٣ . وأما المجموعتان المصريتان فهما أحدث من الأولى ، وبين نسخهما اختلاف شديد فى الأسلوب والترتيب والعدد والقصص ، ومن هاتين المجموعتين نسخة كالكوتا الثانية التى جمعها وطبعها الأستاذ (ماك نوكشن) فى أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٢ ، ثم نسخة بولاق التى طبعتها الحكومة المصرية فى مطبعة القاهرة سنة ١٨٣٥ فى مجلدين ، وهى أكمل النسخ جميعاً وأصحها ، وعنها صدرت جميع الطبعات فى مصر والشام وبومباى . ونقلت جميع الترجمات إلى جميع اللغات ماعدا ترجمة (جالان) . فاما الطبعات فكلهن سواسية فى قبح الشكل وسوء النقل وقلة

العناية لصدورهن عن أرباب المكاتب وأصحاب المطابع ، وهؤلاء يبتغون أوفر ربح فى أيسر كلفة ؛ على أن أديبا من الأدباء المسيحيين قد طبعه ببيروت طبعاً جميلا فى أربعة مجلدات بعد أن قص من قصصه واقتضب من جمله وهذب من عبارته ، ثم جاء الأستاذ منشىء الهلال فأربى عليه فى الحذف والبتر والاختصار وطبعه فى مصر فى خمسة أجزاء صغار . وهاتان الطبعتان، ولا سيما الأولى، أليق الطبعات بأخلاق الفتى وحياء الفتاة، ولكنهما لا تنقعان غلة الأديب الباحث.

وأما الترجمات فأولها فى الوجود ترجمة الأستاذ جالان، وهى أنيقة الأسلوب رائعة السبك، إلا أنها غير دقيقة ولا أمينة ولا وافية. على أن لها اليد الطولى على الكتاب فى التعريف به، والتنويه باسمه، والدلالة على فضله، طبعت هذه الترجمة فى باريس فى اثنى عشر مجلدا ابتداءاً من سنة ١٧٠٤ إلى سنة ١٧١٧ ، ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة إنجليزية مختصرة فى ستة مجلدات بعنوان الليالى العربية. وأشهر الترجمات بعد ذلك فى السعة والدقة والصدق ترجمة بورشن بالانجليزية، وترجمة ماردروس بالفرنسية وترجمة هبكت بالألمانية .

ذلك يا سادتى ما يتحمله المقام والوقت من تاريخ ألف ليلة وليلة ، وإنكم لتروون من هذا الاجمال فعل القريحة العربية فيه، ومظهر العقيدة الاسلامية فى جميع نواحيه ، وطابع العظمة السامية فى أخيلته ومراميه ، حتى أصبح الكتاب عنوانا عريضا من عناوين آدابنا ، وشاهداً جديداً على الحيوية القاهرة والشخصية الآمرة فى آبائنا ، وإلا فبماذا نفسر هذا ؟ لقد خلقوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائعاً فى رسالة محمد، وخلقوا اليونان على العلم فعاد عربياً ساطعاً فى فلسفة ابن رشد ، وخلقوا الرومان على الحضارة فبهر العالم بالعمران والعدل فى عصر الرشيد، وخلقوا الفرس على الأدب فأخضعوا ألسنتهم وأفئدتهم لأدب القرآن، وخلقوا الهنود على القصص فأروع روعة الجمال وقوة الالهام فى ألف ليلة وليلة ، وخلقوا الأمم العظمى على أكثر الأرض فأوشكوا أن يعربوا العالم : فليت شعرى أتغيرت الصحراء أم فسدت الدماء أم ضويت الابناء أم هى ربضة الأسد واستجمامة التعب واستجماعة الواثب ، ثم استئناف الهجمة الأولى على الموقع الأول فى الحياة . ؟ ؟

لقد أعنتكم طويلا وأتعبتكم كثيراً ، وكدت أخرج من المحاضرة إلى الخطابة ، فعذراً يا سادتى وشكراً ؟

أحمد حسن الزيات